

المنظومات اللغوية عند علماء سوف

— دراسة تحليلية —

أ. حرزولي العزوزي

المركز الجامعي الوادي

لقد عرفت منطقة سوف كغيرها من مناطق الوطن كوكبة من العلماء الذين رفعوا لواء الوطنية بنشر الثقافة العربية في هذه الربوع بالوسائل التعليمية المتاحة ومنها المتون المنظومة فهي وان كانت وسائل تعليمية فإنها كذلك دلالة على عبقرية حافظت على الثقافة العربية الإسلامية والمنظومات اللغوية قديمة في الثقافة العربية حتى أن بعض الباحثين يرون أن إرهاصات المتون المنظومة تعود إلى العصر الجاهلي ومن ذلك ما روي عن امرئ القيس في الهلال¹:

أقول فر بما نفع المقال إليك سهيل إذا طلع الهلال

تكاثرني بالآت المعالي وكيف يكأثر البحر الهلال

وتطمع أن تتال المجد قبلي واني تسبق النجب الهلال

ومع اتساع الدول الإسلامية وثناء الثقافة نمت ظاهرة الشعر التعليمي واتسعت معها الارجيز التي تستجيب لهذا الغرض فقد نظم خالد بن معاوية الأموي (ت 85 هـ) أبياتا في علم الكيمياء وله عدة كتب ورسائل وله شعر كثير² حتى إذا جاء القرن الثاني الهجري أصبحت ظاهرة المتون جليلة فقد اتسعت المعارف وتتنوعت الثقافات وازداد الإقبال على التعلم فاستعانوا بالمنظومات لأنها أقرب إلى طبيعتهم التي ألقت الشعر وأيسر في الحفظ وأكثر تشويقا وقد نبه الجاحظ إلى ذلك أثناء إشارته إلى ما نظمه بشر بن المعتمر في أجناس الحيوانات

وبغض النظر عن أصالة هذا اللون أو تأثر العرب بغيرهم من الثقافات فان المنظومات قد تتابعت وتتنوعت وازدادت أعدادها وشملت كل العلوم اللغوية من نحو وصرف وبلاغة وعروض بل نظمت مواضيع في الفلك والحساب في عصر المماليك فكانت ألفية ابن معط وابن مالك في النحو وغيرها كثير واستمر الحال على ذلك في العصر العثماني إلى أن جاءت موجة الاستعمار الغربي والمتون المنظومة من أبرز مظاهر الثقافة السائدة وكان النمط التعليمي الشائع المتلائم مع الواقع المعيش في تلك الفترة التي تتسم بندرة الكتب وانتشار الفقر والزهد في الثقافة العربية ذلك أن النظم العلمي يختلف عن المتن العلمي المنثور فهو يتسم بالاختصار وإيجاز العبارة وبروز التلميح بدلا من التصريح وسهولة الحفظ ومنطقة سوف في القرون الأخيرة اتصفت بكل ما من شأنه الدفع إلى طريقة ميسرة في التعليم فإلى جانب الحرب الممنهجة على الثقافة العربية الإسلامية في الحقبة الاستعمارية وانتشار الفقر فهي بعيدة عن الحواضر العلمية وأقربها جامع الزيتونة بتونس يبعد مئات الأميال

وتتناول هذه المداخلة منظومات لثلة من علماء سوف في القرون الأخيرة وهم :

1— خليفة بن حسن الأقماري توفي سنة 1792 م

2 — إبراهيم بن عامر (1875 — 1932)م

3 — الطاهر العبيدي (1886 — 1968) م

4 — أحمد العبيدي (1888 — 1977)م

¹الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية ، حسين المرصفي ، تحقيق ، عبد العزيز الدسوقي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

1982م ، ص101.

²الفهرست ابن النديم تحقيق محمد أحمد أحمد المكتبة التوفيقية د ت ص482

5 – محمد الطاهر التليلي (1910 – 2003)م

ويمكن تصنيف منظوماتهم بحسب العلوم اللغوية إلى :

– منظومات في النحو والصرف

– منظومات في علوم البلاغة

– منظومات في معاني الألفاظ وهي على ضربين :

• منظومات في ألفاظ القرآن الكريم

• منظومات في الجانب المعجمي بصفة عامة

ويمكن تفصيل هذه الأعمال على النحو الآتي:

1- في علم النحو والصرف :

– نظم متن الأجرومية لخليفة بن حسن الأقماري وتقع في 71 بيتاً¹

– نظم قطر الندى وبل الصدى لإبراهيم بن عامر²

– نظم في الصرف لإبراهيم بن عامر³ وهو مختصر منظومة ابن مالك الواردة في الأفعال التي جاءت بالواو والياء

– بغية الأمل في نظم رسالة العوامل للطاهر العبيدي⁴

– نظم قطر الندى وبل الصدى لأحمد العبيدي⁵

– نظم في القواعد لأحمد العبيدي⁶

– منظومة في الأسماء اللازمة للإضافة⁷

– نظم في الجمل التي لها محل من الإعراب والتي لا محل لها لمحمد الطاهر التليلي⁸

– منظومة في الصرف في ما جاء على وزن فاعل⁹

2- في علوم البلاغة :

– نظم رسالة الدردير في البيان بأسهل البيان¹⁰

– نظم متن الاستعارات للسمرقندي¹

¹إتحاف القارئ بحياة الشيخ خليفة بن حسن الأقماري للشيخ محمد الطاهر تليلي ، ت أبو القاسم سعد الله ، كراس

المجلس ، عدد 4 ، أبريل 2007 ، ص ص (44..36).

²البحر الطافح في فضائل سيدي محمد الصالح لإبراهيم بن عامر ، مطبعة بيكار ، تونس ، 1925م، ص 40 .

³مخطوط وبحوزتنا صورة عنه

⁴الشقيقان للدكتور عاشوري قمعون ، اصدار دار الثقافة لولاية الوادي ، ط1 ، 2010 م ، ص46.

⁵الشقيقان ، ص87.

⁶نفسه ، ص88.

⁷الشقيقان ، ص88.

⁸الشيخ محمد الطاهر التليلي ومنظومته قواعد البيان ، محمد بن ساعد طالبي ، إشراف الدكتور منصور كافي ، السنة

الجامعية 2007 – 2008 ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، ص58 .

⁹نفسه ، ص59.

¹⁰مخطوط وبحوزتنا صورة عنه.

3- منظومات معاني الألفاظ:

– نظم في أسماء الأسد ونظم في الأطفمة لأحمد العبيدي²
– المدخل في غريب القرآن لمحمد الطاهر التليلي وهي منظومة تقع في 445 بيت³
وهذه نماذج للمنظومات اللغوية التي ألفها علماء سوف ومن ذلك ما نجده عند الشيخ خليفة بن حسن الأقماري في نظم الأجرومية قائلًا:

لك الحمد ربي دائماً ومكملاً
وشكراً لما أوليته متفضلاً
وصل وسلم يا إلهي وعمدتي
على المجتبي من ذروة المجد والعلّا

ثم يقول :

وبعد فذو المنظوم ينشر طيه
بنثر ابن أجرّوم إذ منه نقلاً
وذاك لكون النثر يصعب حفظه
وحفظ بيوت النظم أدنى وأسهل

كذلك :

كلامهم لفظ مفيد مركب
يوضع كزيد محسن إذا توكلّا
وأقسامه فيما يعد ثلاثة
هي اسم وفعل حرف معنى به جلا
فبالخفض والتتوين الاسم معرف
وأل وحروف الخفض قل هي من إلى
وعن وعلى في رُبّ والبا وكافها
ولام لملك أو لشبه تأهلا
هي الواو والباء فالتاء تخفض ما تلا

ومنها :

بقد وبسوف السين تاء مؤنث
مسكنه تعريف فعل ليسهلا
علامة حرف كونه غير قابل
لما هو من تلك العلامات فاقبلا

¹ بدائع الجنان واللسان في غريب الألفاظ ومسائل القرآن ، ت قديم د أبو القاسم سعد الله ، شركة دار الأمة ، الجزائر ، 1994م ، ص 10.

² الشقيقان ، ص 88.

³ العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي ، قراءة في سيرته وفكره وأثاره ، إبراهيم رحمانى ، ط1 ، الجزائر ، مطبعة مزوار ، الوادي ، 2005 ، ص 95.

كما نجد ما ذكره الشيخ محمد الطاهر التليلي في نظم الجمل التي لها محل من الإعراب:
فجملٌ إن أولت بمفرد

لها محل فاعرفنها تهتد

عدها تسع كما سيأتي

نظمتُها للحفظ في أبياتي

كجُملة الحال وجملة الخبر

وجملة الموصف كذلك تشتهر

وجملة المفعول والتابع ما

لها محلّ والجواب علما

لفعل شرط جازم وما يضيف

إليها مثل حيث أنت لا تقف

وجملة المستثنى والمسند له

كمن تولى بعد إلا فانتهه

ونظم الجمل التي ليس لها محل من الإعراب:

وجملٌ ليس لها محلّ

عدها سبع فلا تقلّ

كجملة ابتداء أو تفسير

وجملة الموصول في التعبير

وجملة الجواب لليمين

وجملة اعتراض في التبيين

وجملة الجواب للشرط الذي

لم يجزم الفعل فخذها واحتذ

وجملة التابع ما ليس له

من الإعراب موضع يحتله

قد كملت جملنا المقصودة

بحمد رب منجز موعودة

ومما جاء في منظومة إبراهيم بن عامر التي اختصر فيها منظومة ابن مالك الواردة في الأفعال التي جاءت

بالواو والياء قوله :

حمدتك ربي والصلاة على النبي

وآله والحزب الذي قد هديته

وبعده فما بالواو والياء قد أتى

بفرد أفوه ثم فسر كدعيته

كما نجد ما ذكره الشيخ الطاهر العبيدي :

وبعد فاسمع أحسن الصواب

واعلم بأن طالب الإعراب
يلزمه معرفة لمائة
شيء وقد جادت به منظومتي
ستين منها سمها بالعامل
ثم ثلاثين بمعمول يلي
العشرة الأخرى هي الإعراب
حاصلها ثلاثة أبواب
وثالث الأبواب في الإعراب
والعمل الخاتم للكتاب
فهو أي الإعراب إما حركه
أو حرف أو حذف لدى من أدركه
كما نظم الشيخ رسالة القطب الدرديري في علم البيان وفيه :
ناظم نثر الجهبذ الدرديري في
فن البيان رزق اللطيف الخفي
الحمد لله وصلى ربنا
على رسول قد حوى كل الهنا
وآله وصحبه والعلماء
العاملين الراشدين الحكماء
وهذه رسالة لطيفة
فائقة أترابها منيافة
موضوعها التشبيه والمجاز
ثم الكنايات بها تمتاز
وهي على سبيل الاختصار
والاقتصار تحفة للقارئ
إذ المجاز لثلاث ينقسم
إما في الإسناد وإما في الكلم
وهو يكون في المركبات
فأول الأقسام لها ذا الآتي
إسناد فعل والذي قد مائله
لعلقة لغير ما وضع له
وذاك مع قرينة ليظهر
الفرق ما بين مجاز وافترا
وسمه أيضا بالمجاز العقلي
وغيره وانظر كلام الأصل
ثم العلاقات هي الزمان

والسبب المفعول والمكان
نحو النهار صائم وقد بنا
أميرنا البلدة من غير عنا

فصل

والاستعارات ثلاث موضحة
مكنية التخيل والمصرحة
فان بدا مشبه به فقط
فذات تصريح وما بها شطط
كاسد رأيت في الحمام
مشبهها للرجل المقدم
وهي إذا مشبه به استتر
وإنما لازمة كان ظهر
وقد بدا مشبه مكنية
وذكر الالزام تخيلية
ويلزم التخيل للمكنية
كنشبت أظافر المنية
فشبهت بسبع وحذفا
ودل عنه الالزام بلا خفا
وهاهنا لازمة الأظافر
وذكرها التخيل وهو ظاهر
إلى أن يقول :

والمستعار إن أتى اسم جنس

أي غير مشتق كقتل النفس
وأسد فإنها أصلية
وغير ما قدم تابعة
لأنها في الاسم والأفعال
تابعة لمصدر المثال
إلى أن يقول:

ثم المجاز الثالث المركب
ضابطه اللفظ الذي يركب
مستعملا في غير ما وضع له
وذاك مع قرينة مكمله

كما ذكر الشيخ أحمد العبيدي ناظما الأسماء لازمة الإضافة:

لذن لدى سبحان ، ذو ، ومثل

مع ، عند ، كل ، غير ، بعض ، أولوا

فوق ، وتحت ، وورا ، قدام
ويُسرةً ، جامعها ، أمام
ويمنه ، معاذ، شبه وكلا
أيّ ، وكلتا ، ثم دون ، فاقبلا
فهذه لازمة الإضافة
ذكره بحرقُ شرح المَلحمة
أما نظمه في الأظعمة الثمانية فهي قوله:
وليمة ، قل لطعام عرس
وفي نفاس سمه بالخرس
مأدبة ، هي طعام الجيران
حذاقة ، طعام حفظ القرآن
وكبيرة عند بناء الدور
نقيعة لسفر مبرور
عند ولادة الصبي عقيقه
اعذار في الختان خذ طريقه

وجاء في كتاب الإمتاع للتوحيدي كلمات على وزن (فعلٌ) بفتح الفاء وسكون العين فأحبّ شيخنا أن ينظمها في أبيات على شكل سؤال وجواب — رحمه الله —

السؤال :

يا من له في صنوف اللفظ تصنيفُ
وعنده من صروف القول تصريفُ
هل كان في علمك وزن يمثله
(فعلٌ) له بسكون العين تصريفُ
وعينه العين ثم اللام مثلها
واو كقولك (شعوٌ) فيه تعنيفُ
فذاك شرطٌ وفتح الفاء مشترطُ
ألا جواب ولا ريبٌ وتسويفُ؟

الجواب:

في سؤالكم سيدي علمٌ وتشريفُ
جوابه عندنا لا شك معروفُ
الوزن بالشرط محصورٌ كما ذكروا
في عشرة من كلام الناس موصوفُ
فهاكها البعورُ جعورٌ هم وكذا دعورٌ وشعورٌ وصعورٌ وكره ريفُ
وزد لها القعور ثم اللعور معو هم
وختمها النعور للأمال مصروفُ
هذه المعاني من الأوصاف قد ذكرتُ

فاطلب معانيها لا يلهيك تسويفُ

الدراسة التحليلية

- 1- غاية المنظومات تعليمية وذلك واضح من تصريح الناظمين، فكما قلت الكلمات وتكثفت العبارات كان حفظها أكثر سهولة و أيسر على طلاب العلم وهذا ما يفسر الأمثلة والنماذج التي حوتها المنظومات.
- 2- أغلب المنظومات كانت لرسائل نثرية مثل البيان في علم البيان وكتاب العوامل المائة وقطر الندى وبل الصدى. كما كان بعضها تلخيص لمنظومات أخرى كمنظومة ابن عامر التي اختصر فيها ما ورد من الأفعال التي جاء تبال واو والياء
- 3- أغلب المنظومات كانت بهدف اختصار كتب بعينها كمتن الأجر ومية وقطر الندى وبل الصدى وبعضها لمواضيع بعينها دون الإشارة الى كتب محددة مثل الجمل التي لها محل من الإعراب و التي لا محل لها .
- 4- ما نظم من متون امتد ما بين القرن الرابع الهجري ككتاب العوامل المائة و القرن الثاني عشر الهجري كرسالة الدر دبر الموسومة بالبيان في علم البيان .
- 5- اقتصرت المنظومات البلاغية فيما بين أيدينا على علم البيان دون علمي المعاني والبديع رغم ازدهار ما يعرف بالبديعيات المرتبطة بالمذائح النبوية وهو من أكثر أغراض الشعر شيوعا في المنطقة.
- 6-أغلب علماء سوف جاءت منظوماتهم من المزوج ماعدا نظم الأبرومية لخليفة بن حسن القماري هذا من حيث الشكل أما من حيث المضمون فهناك منظومات . خاصة بالصرف وبعضها مقتصر على النحو وبعضها مشترك فمن النوع الأول منظومة ابن عامر و التلبي و من النوع الثاني العبيدي ومن النوع الثالث نظم قطر الندى وبل الصدى.
- 7-ما هو موجود من منظومات لا يتجاوز المائة بيت في أغلبه ولعل ذلك يعود الى توجيهه إلى المبتدئين ارتباط الدراسات اللغوية عند هؤلاء العلماء بغايات دينية يقول الشيخ محمد الطاهر العبيدي
فكل من قد جهل الإعراب في دينيه أخطأ الصواب
حيث النبي والكتاب عربي وخاتم الوحي لسان العرب
وقال شمس في كتاب النفحات علم اللغات فرضه كالصلوات
بل قال بعض أول الفرائض هي وذلك بديل ناهض